ولكنى أعتبر هذه المجاملة فى هذه المناسبة جريمة خلقية واعتبرها خيانة عظيمة فى حق هذه الأمة التى ادين لها فى الدين والاخلاق والانسانية والشرف ، ويدين لها العالم والانسانية فى حياتها الجديدة و فى عقيدتها وخلقها ، وليست أمة أحق بالامانة واحق بالصراحة و أحق بالنصح من هذه الامة التى مثلت الامانة فى عهد سادت فيه الخيانة و صارحت فى فترة طغت فيها المجاملات و صدقت فى دور فشا فيه الكذب و نصحت فى ساعة انتشر فيها الغش والخديعة ، فمن احق بهذه الاخلاق العالية والمعانى السامية من هذه الامة ،

ولكن من ينصح هذه الامة و من يصارحها ومن يصدقها ؟ والزمن زمن السياسة وزمن تبادل المنافع والمصالح وزمن الاستغلال وكل ذلك يقوم ـ أو يعتقدانه يقوم ـ على المجاملات وإرضاء العواطف ، وإطراء الحليف والزميل ، و تخدير الاعصاب ، وعلى الغش والخديعة ، و يقوم على مدح القوميات و على مدح الحضارات القديمة التى تنتسب اليها الشعوب اليوم . و على الموافقة فى خير و شر ورشدو غى مالم تمس مصالح الامة الاخرى السياسية

ومنافعها الاقتصادية ،

ولكن عقيدتى و دينى الذى أومن به وأدين، يفرض على ان أكون صادقاً وصريحاً ، وصلتى بهذه الامة — الدينية والنسبية والثقافية تلزمنى بالصدق والصراحة والوفاء والأمانة ثم اقتناعى بان العرب هى الامة المختارة لحمل رسالة الاسلام قد كتبت لهم الوصاية على العالم ماداموا يدينون بهذا الدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم و علمى بأن هذه الوصاية لم تحول عنهم بعد ولم تبرز امة على منصة العالم تخلف هذه الامة وتضطلع بالامامة ولكنى اعرف ان الزمان زمان التحول والساعة ساعة الانتقال كالساعة التى شهد فيها العالم اكبر تحول فى التاريخ و فى جدود الامم ، ساعة مرت فى منتصف القرن السادس المسيحى تحولت فيها الامامة و تحول فيها منصب الهداية من بنى اسرائيل — الأذكياء المثقفين اصحاب الحضارة والعلوم والقرائح والمواهب — إلى بنى اسماعيل او العرب — الامة التى تغلب عليها الامية والبساطة والفقر والاعتزال عن العالم — والله أعلم حيث يجعل رسالته ، فكان اكبر تحول شهده التاريخ الجديد وكان لهذا

الحادث تأثير ـ فى مصير الامم وأوضاع العالم، واتجاه الانسانية
لم يكن لحادث سياسى او تحول اجتماعى او ثورة اخرى،

انني لا أخاف ان يعود هذا المنصب إلى بنى إسرائيل مرة
اخرى فليس هنالك ما يدل على ذلك و بنو إسرائيل فى شغل
عنه، لا شأن لهم بالعالم وما يعانيه من أزمة روحية و دينية
و خلقية، أسسوا حياتهم الجديدة و دولتهم الوليدة على المادة
والمعدة والتنظيم الصناعى، والاقتصادى وجمعوا بين مبادئ كارل
ماركس ـ الذى نبغ فيهم ونهض منهم ـ و وصايا ميكا فيلى، و
حملوا معهم من اوربا الى وطن اليهود ثمرات الحضارة الجديدة
المادية اليانعة و حملوا معهم عصارتها و خلاصتها و شرورها
و خبائثها فهم من أبعد الشعوب من أن تسند اليهم هداية الامم
والوصاية على العالم، ومن أن يؤمل فيهم النهوض برسالة
الانبياء الذين ينتسبون اليهم كثيراً و يتبجحون بهم كثيراً ومن
ابعد الناس ان ننتظر منهم الثورة على الفساد الذى ظهر
في البر و البحر بما كسبت ايدي الناس و من ان يحملوا إلى
الغرب رسالة الانبياء والحياة الروحية والدعوة إلى الوحدة

الانسانية والفكرة الافاقية والعالمية وان يجاهدوا فى سبيلها
و يتفانوا لاجلها

و لكن ليس العالم كله بنى إسرائيل وهم حفنة من البشر
وقطعة صغيرة من الارض، قديفاجئ العالم شعب آخر او بلد
آخر لم يكن فى الحساب كما فاجأ العرب العالم القديم،

وان هذا التحول يكون من غير نبوة جديدة فليس فى النبوة
المحمدية و فى تعاليمها و فى شرائعها ما يوجب التحول انها
دائمة خالدة انها حية باقية انها سائرة مع الزمن بل سابقة للزمن
نه سيكون تحولا فى جملة هده الرسالة و فى حماة هذه الرسالة
وهى حاجة الانسانية ونداء الوقت

والذى يطمعنى فى هذه الكلمة و يغرينى بها هو حبى وحرصى
على ان يستعيد العرب مكانتهم العالمية ويتسلموا هذه القيادة
المباركة التى يقول الله عن حملتها « و جعلناهم أئمة يهدون بامرنا
لما صبروا وكانوا باياتنا يوقنون » وان يتحولوا عن المعسكر
الذى يقول الله عن قادته وزعمائه « و جعلناهم أئمة يدعون إلى النار
يوم القيامة هم من المقبوحين » بل يثوروا عليه و يعارضوه

ويحاربوه و ينادوا بأعلى صوتهم « كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء ابداً حتى تؤمنوا بالله وحده، نادى بها جدهم ابراهيم فى عصره وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون »

إن لى كلمة اليوم مع إخوانى العرب الذين يؤمنون بالله ورسوله و يؤمنون بهذ الدين ولى كلمة اخرى مع الذين يؤمنون بالعروبة و بالامة العربية وحدها، وكلتا الكلمتين صريحة وصادقة صدرت عن إخلاص و حب و نصح ،

ان كلمتى مع إخوانى المؤمنين بالاسلام واضحة جداً ، وان خطبى معهم يسير جدا اسمحوا لى ايها الاخوان ان اردد لكم الكلمة النبوية المدوية التى خاطب بها رسول الله الانصار يوم حنين والاوطاس وسجلها التاريخ بنصها و فصها « ألم آتكم ضلالا فهدا كم الله بى . و عالة فاغناكم الله بى . واعداً فألف بين قلوبكم ايستطيع التاريخ العربى - وهو الصادق الامين - أن يشك فى صدق هذه الكلمة او ان يشك فى حرف من حروفها او نقطة من نقطها لو كان هنالك مساغ للشك او مجال للجدال لسارع اليه

رجال عرفوا بالشجاعة والصدق والصراحة ولكنهم قالوا صدقت لله ولرسوله المن والفضل وقال التاريخ صدقت لله ولرسوله المن والفضل ،

ألم تكونوا ضلالا باتفاق العقلاء والمنصفين منكم . ألم تشهدوا على نفوسكم بالضلال مراراً وفى مناسبات كانت أحق بالفخر والمباهاة ونفى الاتهامات والشائعات ، ان كانت مجرد اتهامات وشائعات ، اما شهد به جعفر فى مجلس النجاشى ، وشهد به خالد أمام قادة الرومان وشهد به المغيرة بن شعبة وربعى بن عامر فى مجلس رستم ويزدجرد ،

وأى ضلال بالله أعظم من عبادة الاوثان فى العقيدة والدين وعبادة الشهوات فى الأخلاق ، وو أد البنات فى الاجتماع ؟

ألم تكونوا عالة تجدون من الأقوات والاكسية النزر اليسير قد استبد بأفضلها وأكثرها وألينها الروم والفرس ، ألم يقل لكم يزدجرد يوم تقدمتم إلى عاصمته تتحدونها وتتهددونها بقوة

إيمانكم ودينكم الجديد ، و ان كان الجهد دهاكم ، فرضنالكم قوتا إلى خصبكم واكرمنا وسوهكم وكسوناكم و ملكنا عليكم ملكا يرفق بكم ، فلم يكذبه أحد من رسلكم والعرب اسرع الناس إلى تصديق الواقع والاعتراف بالحق ، و تكذيب الباطل ونفى الافتراء وأجرؤهم على الملوك والامراء .

ألم تكونوا أعداءاً باسكم بينكم شديد وقلوبكم شتى ، والقبائل دائما فى حرب دائمة أو هدنة عارضة و قد شهد التاريخ على ارضكم اطول حروب واشأمها لاهلها فى تلك البيئة المحدودة ومن يستطيع ان ينسى حرب بسوس و داحس والغبراء؟ و ما يوم حليمة بسر!

الا لا يشكن احد فى نزعتى ولا يرمينى احد بالشعوبية وحمية الجاهلية فانى لااقل عن اكبر عربى يعيش فى العواصم العربية فى عربيتى ونسبى الصريح المتصل وحبى للعرب وتضلعى من ثقافتهم وعلومهم وآدابهم ولغتهم ، وليس احد من إخوانى العرب الاقحاح اولى بالاعتزاز بالعربية منى واوفر نصيباً فيها منى ولكن الاسلام افضل من كل نسب و اقوى من كل عصبية .

ثم ماذاكان ؟ اسألوا التاريخ واسألوا ضمائركم وقلوبكم، هبت عليكم نفحة من نفحات الاسلام وقام فيكم محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم، وكان آخر الامر منكم جميعاً إجابته إلى مادعا و تائيده فى ما جاءبه فأصبح الذين كانو بالامس ضلالا لا يعرفون ديناً ولا يحملون علماً هداة معلمين وأئمة مرشدين، حملوا النور والهدى والحياة إلى اقصى العالم « يدعون من ضل إلى الهدى . و يصبرون منهم على الأذى يحيون بكتاب الله الموتى ، و يبصرون بنور الله أهل العمى ، فكم من قتيل لابليس قد أحيوه، وكم من تائه ضال قد هدوه ، فما أحسن أثرهم على الناس » (١)

و كيف كان أثرهم على الناس ؟ إسألوا فى ذلك تاريخ العالم بعد القرن السادس المسيحى، ما أعظم اختلافه عن القرن السابق ؟ وما أعمق أثره فى العقائد والأخلاق والاجتماع . و كيف قامت دولة التوحيد والايمان ، وكيف قامت سوق الجنة . هل قامت دولة التوحيد والايمان هذا القيام فى عصر من العصور ، وهل نفقت سوق الجنة هذا النفاق قبل محمد صلى الله

عليه وسلم و قبل ان يقوم العرب لنشر رسالته وهل انتشرت الهداية هذا الانتشار العظيم قبل مبعث الرسول ونهضة العرب ؟

وكيف كان غناكم ايها العرب بعد البعثة العربية والفتح الاسلامى العربى ، الم يكن غنى تخطى القياس و تجاوز حدود الشرع والاخلاق وكان موضع نقد شديد من العلماء وإن كنتم فى شك من ذالك ولا إخالكم فاقرؤا قصص الترف الأموى واقرؤا قصة عرس المأمون ودعوة ابراهيم بن المهدى للرشيد و تأملوا فى انقلاب الأوضاع الاقتصاديه فى جزيرة العرب و فى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم و عموم الغنى فى العصر الأموى حتى كان الوالى يبحث عن فقير يقبل الزكاة فلا يجده وكيف امتدت دولة الاسلام حتى استطاع الرشيد أحد ملوكه ان يقول لسحابة و قد مرت به « امطرى حيث شئت فسيأتينى خراجك ؟ و فى ذلك بلاغ ومقنع .

وكيف كان إتحادكم بعد الافتراق وحبكم بعد التباغض وإيثاركم بعد الأثرة اسألوا عن ذلك الأوس والخزرج واسألوا

عن ذلك الانصار والمهاجرين واقرؤا قوله تعالى « واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداءاً فالف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته إخوانا » ولم يشهد التاريخ الانسانى اخوة امتن ولا اطهر ولا ابعد من الاغراض ولا اعمق من هذه الاخوة وانظروا كيف حاربت القبائل ـ المتناحرة بالامس ـ تحت راية المثنى بن حارثة وسعد بن الوقاص وخالد بن الوليد وعقبة بن نافع وقتيبة بن مسلم وموسى بن نصير وطارق بن زياد ومحمد بن القاسم وكيف حاربت الامم والشعوب ـ المتعادية المتباعدة بالامس ـ تحت راية صلاح الدين الايوبى ، الم يكن ذلك كله معجزة الاسلام وتصديق قول الرسول « الم آتكم اعداءاً فألف بين قلوبكم » الا تزال العقيدة الاسلامية والرسالة المحمدية تجمعان امما وشعوبا من اعظم الامم والشعوب تباعداً فى الاوطان وإختلافاً فى الحضارات والثقافات وتنوعاً فى الالسنة واللغات . هل توجد مجموعة بشرية تختلف فى الالوان هذا الاختلاف وتتحد فى

الم يكن كل ذلك عن طريق محمد صلى الله عليه وسلم وحده وعن طريق دينه الذى جاء به وحده لا يشك فى ذلك مورخ ولا يشك فى ذلك منصف ولا يشك فى ذلك قومى فحقائق التاريخ اجل من ان يتناولها الشك او يسوغ فيها الجدال ؟

ثم ماذا كان اسمحو الى ولا تواخذونى -فى عصر القوميات وفى العصر الذى اصبح العرب حاشا المؤمنين منهم- فيه يتناسون محمداً صلى الله عليه وسلم وما جاء به من النعمة . وأصبحوا يؤسسون حياتهم وسياستهم على الوحدة العربية ، والقومية ، والوطن العربى . ألم يكن ضلال بعد هدى . ضلال فى العقيدة والعمل والاخلاق والاجتماع وفوضى فكرية هائلة ، وتفسخ خلقى واجتماعى لا يقل -فى العواصم العربية الكبرى- عن التفسخ الخلقى والاجتماعى فى الجاهلية الاولى ، وقد يفوقه بالتنظيم والانتشار ، وبأنه قد صار فناً وصناعة وتجارة .

ألم تكن أزمات ومشاكل لا تنتهى وفقر مدقع فى بعض الطبقات وسوء توزيع أما أصبحت الشعوب العربية كلها أو جلها عيالا على الغرب اما اصبحت مسئلة اللاجئين عقيدة .

لا تحل ، أما اصبحت البلاد العربية مهددة بالشيوعية ؟

ثم الم تكن فرقة بعد وحدة ، وانقسام بعد اجتماع شمل واتحاد كلمة ، وليس هنالك ما تخلف الرابطة الاسلامية وتقهر الشهوات — شهوة الحكم والزعامة والاستقلال بالمجد ، والا نانيات والاغراض الجنسية ، وقد ظهر ضعف الرابطة العربية عن قهر هذه الشهوات والنزوات لتجردها عن عقيدة قوية وايمان عميق وتربية صالحة فى الايام التى أكتب فيها هذه السطور ولست أدرى ماذا يفاجئنى و يفاجئى العالم صباح الغد ، وقد انقسم المعسكر العربى إلى جبهتين او ثلاث جبهات ،

إن الفرد العاقل يوازن بين ربحه و خسارته و دخله وخرجه أليست — لأمة - كالأمة العربية العظيمة الحكيمة - أن توازن بين ربحها و دخلها لما استمسكت بغرز محمد صلى الله عليه وسلم واعتصمت بدينه و حملت رسالته ، و بين خسارتها وخرجها لما انفصلت عن ركبه وانطوت على نفسها و عاشت فى عزلة عن العالم الاسلامى و أصبحت تنظر إلى القومية العربية كعوض عن القومية الاسلامية ،

إن الكلمة الصريحة التي أريد أن اقولها لكم ايها الاخوان العرب وقد قلتها في ناد عربي امام لفيف من اعيان العرب هي «إنما تتشرف الامم والجماعات والافراد و يكتب لها البقاء والخلود والعزة والنصر باتباع هذا النبي الكريم والاعتزاز بدينه والتمسك بأهدابه و حمل رسالته وامانته ، ومن استغنى عنه او رأى الشرف في غير اتباعه أو ثار على إمامته العامة الخالدة التي فرضها الله على اجيال الانسانية كلها و على ادوار التاريخ كلها و قطع صلته عن دوحته العظيمة و شغل بنفسه وشهواته و مصالحه الشخصية عن حمل رسالته واداء امانته ، محي من الوجود واخمل ذكره واصبح مطموساً منكوساً وكان كورقة انفصلت عن شجرة خضراء فتذوى سريعاً و تصبح هشيماً تذروه الرياح عربياً كان او تركياً هاشمياً كان او تميمياً ـ هذا قضاء الله وحكمه ولا راد لقضائه »

فلا دعوة ايها الاخوان الكرام ولا هتاف في بلد عربي الا « إلى الدين من جديد » إلى محمد صلى الله عليه وسلم من جديد » إلى الثورة على فلسفة الحياة الغربية و على المادية ولا

مستقبل للعرب — ألا فليسجل التاريخ وليدون الكتاب وليسمع العرب جميعاً — إلا بالاسلام والاجتماع تحت راية محمد صلى الله عليه وسلم » (١)

— ٢ —

وكلمة أزفها إلى اخواننا العرب الذين يؤمنون بالعروبة كعقيدة ورسالة وينظرون إلى الامة العربية كأمة لا تعيش إلا على مواهبها الكامنة، ولغتها العظيمة. وصلاحيتها للبقاء، وموقعها الجغرافي. واهميتها السياسية، ويعتقدون أن شخصية الأمة العربية أقدم وأضخم من الرسالات السماوية، والعقائد الدينية، فقد كانت هذه الأمة قبل أن تكون هذه الرسالات، وستظل بعد هذه الرسالات، وتستطيع ان تعيش بغيرها،

إننا نلتقي بهؤلاء القوميين في تقدير الأمة العربية والاعجاب بشخصيتها القوية ومواهبها العظيمة وصلاحيتها للبقاء، واجلال لغتها العبقرية. إنهم لا يسبقوننا في شئ من ذلك وليسوا أولى بهذه الامة العظيمة وتقدير فضائلها — الصحيحة الثابتة — منا،

١ من رسالة الى الراية المحمدية ايها العرب للكاتب ص ٦

ولكننا نناشدهم بهذا الحب للعرب الذى يجمع بيننا وبينهم ونلتقى عليه، وبالتاريخ الذى يثقون به و يحتجون، هل كان للعرب أن يمثلوا هذا الدور العظيم الذى مثلوه فى العالم، وأن يشغلوا سمع الزمان وبصره، وأن يغيروا مجرى التاريخ، لولا هذه الرسالة السماوية التى تسمى الاسلام، ولولا هذا الكتاب العظيم الذى يعرف بالقرآن، لولا تبنيهم لهذه الدعوة الجديدة و جهادهم فى سبيلها. وهل كان لهم — إذا جرت الامور مجراها الطبعى — أن تفرض زعامتهم و سيادتهم على الشعوب والامم، — ذات المدنيات الباهرة العتيقة، والثقافات الواسعة العميقة — وأن تنتشر لغتهم فى مشارق الارض و مغاربها فتندرس لغات كثيرة و تنسى، و تصبح اللغة العربية من ضفاف دجلة فى العراق إلى الوادى الكبير فى الاندلس هى لغة العلم والدين، والعبادة والسياسة، و ينبغ فيها أساتذة كبار وأئمة عظام كالجرجانى والزمخشرى و أبى على الفارسى والصغانى والزبيدى؟ إلى اى مساحة زمنية أيها السادة وإلى أى أعداد و مقادير رياضية كان العرب يحتاجون فى الوصول إلى هذه السيطرة السياسيه

والثقافة ؟ لو بقوا على وضعهم القديم هل كان يمكن ذلك فى ألف سنة ؟! فقد مضى على الامة العربية آلاف من السنين وهى تعيش على هامش الامم وفى عزلة عن العالم أم كان اشعرها البليغ وأدبها الرفيع ولغتها العظيمة ان تشق طريقها إلى الامام وتبلغ بهذه الامة إلى ذروة المجد واوج السيادة كما وصل بها الاسلام فقد كانت المعلقات وكان شئ كثير مما يحتوى عليه ديوان الحماسة قبل ان يظهر الاسلام ويبعث محمد عليه الصلاة والسلام فما اغنى عنها هذا الشعر البليغ وهذا الادب الرفيع وهذه اللغة العظيمة ولم تخضع للعرب الامم واللغات والادب بل لم يسترع هذا الشعر والادب واللغة إنتباه العالم المتمدن ولم تتوفر الهمم والدواعى على جمعها وتدوينها ونشرها وشرحها إلا بعد ظهور الاسلام وبعد ما اصبح العرب — بفضل الاسلام — اساتذة العالم واصبحت لغتهم وآدابهم ثروة إسلامية يجب على جميع من يدين بالاسلام دراستها والتوسع فيها وحفظها ؟

هذه كلها حقائق تاريخية بل هو التاريخ نفسه ولا اصدق ايها السادة الفضلاء انكم تجحدون التاريخ وتكابرون الواقع إلا أن لكم ان تقولوا إنما انتشرت اللغة العربية وآدابها بتأثير السيادة العربية العالمية و بفضل الحكومات العربية التى قامت فى انحاء العالم كما انتشرت اللغة الإنجليزية بتأثير الامبراطورية البريطانية واللغة الفرنسية بتأثير الامبراطورية الفرنسية و ستنتشر هذه اللغة الكريمة مرة ثانية اذا قامت الامبراطورية العربية فليس الاسلام مرد هذا الفضل إنما هى القوة السياسية والسيطرة العالمية ،

إننى لا أريد أن أطيل عليكم أيها السادة و أسائلكم كيف قامت الامبراطورية العربية وكيف انبثت سيطرة العرب؟ الم تقم بفضل الاسلام، فكل ذلك معروف عندكم، ولكنى أقول لكم إن قضية اللغة العربية وانتشارها وتحكمها فى العالم تختلف عن قضية اللغة الانجليزية واللغة الفرنسية كل الاختلاف، فاللغات الاوربية إنما تبعت الحكومات الاوربية و رافقتها فى تقدمها

ومغامراتها وعاشت عيالا عليها ، وكلمانالت امة إستقلالها وتحررت من نير الحكومة الاجنبية ثارت على هذهاللغة وحاولت ان تتخلص عنها فى اقرب فرصة لانها تعتبرها لغة اجنبية طارئة وتعتبرها رمز الاستعمار البغيض، والاحتلال المقيت، وهذاشأن الهند التى أتقنت اللغة الانجليزية كأهلها، وكان فيها ادباء وكتاب وشعراً ودستوريون كبار صممت على التخلص منها فى مدة قريبة وسيكون هذا شأن الجزائر بعد التحرر لان هذه الاقطار لا تربطها بهذه اللغات الاوربية عقيدة دينية او عاطفة روحية إنما هى لغات فرضها عليها الاستعمار فرضاً فجديربها ان تتبع الاستعمار فى رحيله حتى يتم الجلاء ويتم استقلال البلاد سياسياً وثقافياً،

اما اللغة العربية فقد استمرت فى الانتشار والازدهار بعد ضعف الحكومة العربية واستعجامها وظلت تنتشر وتزدهر بعد انتقال القوة السياسية الى الفرس والعجم وظلت تسيطر على اكبر رقعة من العالم الاسلامى وعلى اعظم مجموعة من العقول

البشرية رغم ضعف العرب فكانت لغة التأليف ولغة الحكمة والفلسفة ولغة البحث العلمى ولغة الفقه والكلام ولغة التاريخ والادب ولغة التفسير والحديث فى ايران وتركستان والهند، ولا تزال لها مراكز ثقافية كبيرة فى الهند و باكستان، و يبلغ عدد من يحسنهاقراءة و فهما فى هذه البلاد الاعجميه مئات الوف ولا يزال من يتعصب لها. واذا خير بين لغته الوطنية التى نشأعليها و بين اللغة العربية التى نزل بها القرآن آثر اللغة العربية على لغة بلاده، وحرص على تعليمها لاولاده. ولا سبب لذلك الا أنها لغة العقيدة و الشريعة و لغة الاسلام، « الرسمية » و قد كان الشيخ على المتقى من رجال القرن العاشر يؤلف فى هذة اللغة وليست على وجه الارض حكومة عربية صميمة تكافئه على هذا البر باللغة العربية، و قد كان تلميذه محمد طاهر البتنى يؤلف كتابه البديع « مجمع بحار الانوار » فى شرح غريب الحديث فى اللغة العربية—وهو فى الهند—بعيداً عن مركز هذه اللغة، و قد الف الشيخ محمد أعلى التهانوى كتابه الفريد « كشاف اصطلاحات الفنون » فى القرن الثانى عشر والشيخ احمد بن

عبدالرحيم الدهلوى كتابه العظيم « حجة الله البالغة » فى القرن الثانى عشر ، وكلاهما آثرا اللغة العربية لأثرها العلمى الكبير لانها فى عقيدتهما لغةالاسلام و لغة العلوم الاسلامية و لغة المؤلفين الاسلاميين الحبيبة الأثيرة و قد أفاض الاسلام على اللغة العربية قدسية ليست لغيرها من اللغات وغرس حبها فى نفوس المسلمين و فى سويداء قلوبهم حتى أصبحوا يؤثرونها على لغة آبائهم و بلادهم وأخفقت الحكومات الجابرة فى اقتلاع هذا الحب من نفوس شعوبها المسلمة وقطع صلتها عنها وقد منعت الحكومة التركية الاذان بالعربية قانونياً و بقى الاتراك المسلمون يحنون إلى كلمات الاذان العربية اكثر من ربع قرن حتى إذا سمح لهم بذلك فى العهد الاخير ودوى الاذان العربى أول مرة على منابر تركيا سجد الأتراك على الشوارع شكراً و فرحاً وذبحت ألوف من النعاج والغنم ،

فهل للغة من لغات العالم هذه المنزلة فى النفوس وهذه المحبة فى القلوب ؟ و هل كان للعرب هذا النفوذ العقلى والثقافى

فى العالم و هل كان لعلومهم وآدابهم هذا النفاق العجيب والرواج العظيم. وهذه السيطرة على العقول والقرائح والأقلام لولا الاسلام ولولا البعثة المحمدية على صاحبها الصلاة والسلام،

ونرجع إلى الحاضر أيها السادة ونقارن بين مستقبل الامة العربية وقد احتضنت الرسالة المحمدية كما احتضنتها فى السابق وأدمجت شخصيتها فيها وقامت تدعو إليها وتكافح فى سبيلها وبين مستقبل هذه الامة وقد تجردت عن هذه الرسالة وتخلت عنها وانطوت على نفسها واقتصرت على القومية العربية ودعت إلى حضارتها الاولى وآدابها العربية التى سبقت الاسلام.

خذوا أيها السادة ورقة بيضاء تجدونها وخذوا قلما لا ينقطع مداده، وارسموا قمة المجد التى تستطيع الامة العربية المتجردة عن الرسالة الاسلامية والزيادة المحمدية — ان تصل إليها ارسموا هذه القمة بكل سخاء و شجاعة وارفعوها فى إطار الوقع والامكان العملى ما استطعتم. هل تريد هذه الامة على

إن تكون كالشعب الهندى او الشعب اليابانى فى الشرق او الشعب الفرنسى او الشعب الانجليزى فى الغرب ، انه اقصى ما يصل إليه شعب فى حدود القومية ولا اريد ان اثير الان مسئلة العدل والظلم والحق و الباطل و هل يجوز لشعب ان يستعبد شعبا آخر وان يحتل بلاداً اخرى ولكن هذه مدى القومية وهذه آفاقها و هذه اقصى حدودها ،

اين هذه القمة — مهما عظمت و تعالت — من منصب الثقة العالمية التى كانت تتمتع بها هذه الامة ، وهى أمة الرسالة وهى أمة الاخلاص والتجرد واين هى من منصب الهداية والامامة التى كانت تتمتع به و هى أمة العقيدة والايمان ان نتيجة الوضع الأول — الوضع القومى — الاحقاد والضغائن والثورات والحروب والصراع الذى لا يكاد ينتهى ونتيجة الوضع الاخر — الوضع الدينى — الألفة والمحبة والتقدير والاعتراف والهدوء والسلام إن الرسالة المحمدية قد بلغت بالعرب إلى قمة المجد الحقيقى والسيادة الحقيقية حيث خضعت لهم القلوب والرقاب و دانت لهم العباد والبلاد وامتلات لهم القلوب حباً

و حناناً و نصيحة وإخلاصاً « هو الذى ألف بين قلوبكم لو أنفقت ما فى الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله الف بينهم » ولم يعرف التاريخ فاتحاً أحبه المفتوحون غير العرب وقد اعتبروهم مرشدين و منقذين ومحررين لأن الرسالة التى كانوا يحملونها هى رسالة فيها الارشاد ، وفيها الانقاذ، و فيها التحرير ، و فيها الرحمة وفيها الحياة ، و فيها العقل ، و فيها الانسانية ، وهذه الرسالة كفيلة بان تبلغ بالعرب اليوم إلى هذه القمة وان تبوئهم مبوأ صدق . وان تمكنهم فى الارض و تجعلهم أئمة و تجعلهم الوارثين .

إن الأمم أيها السادة القوميون لاتعيش بالحضارات ولا تعيش باللغات . وإذا عاشت كانت حياتها قصيرة ، و مصطنعة و سطحية ، إن الامم تعيش بالرسالات . و قد سمعتكم كثيراً تقولون « إن العرب امة واحدة ذات رسالة خالدة » فما هى هذه الرسالة ؟ إذا كانت الرسالة المحمدية ـــ وهى اقرب الرسالات إلى الطبيعة العربية والأمة العربيةـــ فلا مناقشة ، وإذا كانت غيرها

فماهى ايها الاسياد، وهل هناك رسالة خالدة غير الاسلام وهل هناك دعوة او توجيه عالمى يغيث الانسانية المحتضرة، والمدنية الغربية المنهارة ويمد الغرب بالايمان واليقين، والثقة والقوة الروحية والانسانية السامية، غير الاسلام الذى لا عيب فيه إلا أنه أتاكم عفواً من غير تعب و تضحية، وانتقل اليكم من آبائكم فى التراث وعاش فيكم طويلا، من غير أن تدرسوه و تفقهوه،

لقد كان جديراً بكم ايها السادة القوميون أن تقتبسوا هذه الرسالة ولو كانت فى أقصى العالم و عند أبعد الامم وتتحفوا الأمة العربية بها لتعيش بها كريمة قوية وتتزعم بها العالم و بذلك تثبتون اخلاصكم وودكم ووفاءكم لهذه الأمة و تكونون قوميين صادقين فكيف وقد اشرقت هذه الرسالة من افقكم و ظهرت فى لغتكم و تمثلت فى امتكم ووصلت إلى اقصى حدود العالم عن طريقكم،

ان اعظم مجرم قومى فى حق العرب وأضر على هذه الامة من هولاكو وچنگيز خان من يضعف صلتها بهذا الدين ومن ينضب فى نفوسها معين الايمان واليقين ومن يحول بينها و بين محمد صلى الله عليه وسلم إن من يرتكب هذه الجريمة هو الذى يمهد الطريق لضياع هذه الامة الكريمة وانهيارها و افلاسها و يتآمر على وجودها وقوتها ويحولها من امة مؤمنة منظمة قوية ذات عقيدة وهدف ورسالة وقائد عام محبب إلى امة متشككة ضعيفة لا عقيدة لها ولا هدف ولا رسالة ولا قائد تجتمع القلوب على حبه و تجتمع الشعوب حول رايته ان الخواء الذى تحدثه هذه الثورة المشؤمة لا يملأه تنظيم قومى أو حلف عربى إن الايمان لا عوض له فى حياة الامم والافراد وإن الأنبياء لا يخلفون بالزعماء السياسيين ، وإن الوعى القومى أو السياسى مهما تم و قوي لا يمنح الامة العقيدة الحازمة ، والدوافع النفسية العميقة إلى عمل الخير ، والاخلاق المستقيمة . ولو أغنى هذا الوعى عن أمة لأغنى عن الشعوب الأوربية ، وما كانت فريسة التفسخ الخلقى والفوضى العقلية ، ولما تعرضت للنهاية

إن هنالك أمماً فى الشرق بدأت تشعر بهذا الخواء الروحى، والافلاس فى الايمان والعقيدة، وفقدان قائد دينى روحى يجمع بين الشعوب والطبقات، ويذيب اختلاف اللغات والثقافات، و يغلب على العصبيات المحلية أو الحزبية، والحزازات السياسية، فقامت تبحث فى تاريخها عن نبى أو قائد روحى تجعله إماما و قائداً و تدعو باسمه وقدأحيت الامة الهندية حديثاً ذكرى بوذه ذلك الذى اضطهدت ديانته و نفتها من الهند فى العهد القديم، واحتفلت به الهند حكومة و شعباً، وقد نشط فى ذلك كبار الملاحدة والزعماء السياسيين الذين لا يدينون بدين ولا يؤمنون بعقيدة، وذلك كله حرصا على جمع شمل هذه الامة العظيمة التى تتوزعها شعوب وطبقات وعصبيات، و على اعادة الحياة والروح إليها، فمن المؤسف المحزن المخجل ان يقوم فى هذا الوقت فى العالم العربى رجال يدعون إلى القومية العربية المجردة من العقيدة والرسالة، وإلى قطع الصلة عن أعظم نبى عرفه تاريخ الانبياء و عن أقوى شخصية ظهرت فى العالم، و عن أمتن رابطة روحية تجمع بين الامم والافراد،

والاشتات والأضداد ، إنها جريمة قومية تبذ جميع الجرائم القومية التى سجلها تاريخ هذه الأمة وإنها حركة هدم و تخريب تفوق جميع الحركات الهدامة المعروفة فى التاريخ وانها خطوة حاسمة مشئومة فى سبيل الدمار القومى ، و « الانتحار » الاجتماعى .

إننى أعتقد أن فى القوميين رجالا مخلصين جادين ، لم يدفعهم إلى هذا التفكير الخاطئ إلا الحب الزائد للعرب ، والحرص على مجدهم و عزهم والنزعة القومية التى طغت بتأثير الغرب على جميع الشعوب ، وأنهم لم يتعمقوا فى هذه المسئلة تعمق الخبير المفكر ولم يختبروا نتائج الحركة القومية المجردة عن الاسلام ـــ الواسعة وما تجنيه على العرب أنفسهم من ويلات وخسارات وتحولات عظيمة وأنهم لا يزنون شيئاً الا فى ميزان النفع للعرب و أنهم اذا قيل لهم اتقوا الله فى العرب لم تأخذهم العزة بالاثم . إلى أولئك المتجردين عن حمية الجاهلية الباحثين عن الحق التابعين للحقيقة اهدى هذه الكلمة المخلصة .